

## الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب الأوسط

## مراكز المسالك الصحراوية أنموذجا

أ. عبد الرحمن بلاغ

جامعة بشار

ورقني في هذا الملتقى العلمي موسومة بـ "الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب الأوسط.. مراكز المسالك الصحراوية أنموذجا"، والتي سأحاول من خلالها الإجابة عن الإشكالية التالية: ما مدى مساهمة الأنشطة الحرفية والمهنية في تطور مراكز المسالك الصحراوية؟ وهل من علاقة تجعل الحرف والمهن الممارسة بقرى الصحراء، مرتبطة بالقوافل التجارية والحجيجة؟ إنَّ اختيار هذا الموضوع وبهذا الطرح، دفعني له الحديث المتواتر عن القوافل التجارية ومسالكها سيما الصحراوية، سواء في كتب الجغرافيين والرحالة والباحثين، وهو في الغالب توصيف للركب ومساراته ومزاراته وأسواقه، والقارئ لها يجد صعوبة في استيعاب مقدرة القافلة التي تنطلق مثلا، من تلمسان إلى تمبكتو عبر الفيافي والقفور، أو من قرى واد جير إلى فزان وأكدز وغيرها، ومرد هذا الاستغراب في تقديري، يعود إلى جهل القارئ، بتكوين القافلة من جهة، وما توفره المحطات والمراكز من دعم لوجيستي لها من جهة ثانية، والتي بدونها يفتقد التواصل بين سواحل ودواخل المغرب الأوسط.

إنَّ تفكيك الحرف والمهن المرافقة للقافلة، يتطلب جهدا علميا وصناعة تاريخية، تمكن الباحث من فرز مكونات القافلة، وصولا إلى تشخيص الأنشطة المرافقة لها، أو بعبارة أصح الدولاب المحرك لعجلاتها، كما أن المراكز أو محطات التزود الصحراوية، نشأت وتطورت بحكم

موقعها وفق ثنائية، نقط المياه ومسارات حركة القوافل، ونستطيع أن نفهم حركية هذه المراكز الاقتصادية والمالية، بالنظر إلى محتويات أسواقها، وتقاليدها ساكنتها، فوظيفتها اقتصادية وحضارية بالنسبة للقوافل، حتى أننا نجد قري ومدنا هجرت أو فقدت مكانتها كسجل ماسة، بفعل تحول الطريق التجاري عنها إلى وجهات أخرى؛ فالمكاسب والمنافع متبادلة بين القافلة المتنقلة والمراكز الثابتة، بفضل ما توفره الحرف والمهن للطرفين؛ فمن المراكز تتغذى القافلة و بها تستريح الدواب والركبان، وفيها يلتقي التجار بالصلحاء والعلماء.

### 1- إشكالات المجال الصحراوي:

في الغالب تحتل الكتابات التاريخية عن المراكز الشمالية الساحلية المغرب الأوسط، مكانة متقدمة جداً، مقارنة بما دون علميا عن السواحل الجنوبية الرملية ومراكزها، رغم أن الصحراء تمثل ثلثي مساحة المنطقة، وازدهار المراكز الشمالية قائم نسبة كبيرة على ما قدمته السواحل الرملية من خدمات لتجار الذهب والعبيد والملح، إذ يعتبر السودان الغربي منذ القرن 2هـ/8م وحتى اكتشاف أمريكا المصدر الرئيسي لتمويل العالم بالذهب حسب ميوني ( زنيبر، م. 1984: 161).

لم تكن صحراء المغرب الأوسط، خلال التاريخ، حاجزا في وجه التواصل الحضاري الفعال بين الشمال والجنوب أو الشرق والغرب، خاصة مع انتشار الاسلام بالواحات وبلاد السودان، إذ يشير كل من العروي ولومباردو، حسب الباحث زنيبر، أن الاتصال التجاري بإفريقيا السوداء لم يتم إلا في عهد الاسلام وعلى يد المسلمين، ويستبعد البعض أن يكون القدماء، عرفوا الصحراء جنوب توات، أو فزان وأن المعرفة لم تفر إلا مع العرب المسلمين ( زنيبر، م. 1984: 161-190).

في حين هناك دراسات أخرى، مثل كتاب "البرتغاليون في غرب إفريقيا"، إذ يشير إلى أن جنوب الصحراء الكبرى كان مطروقا منذ الفترة القديمة، حيث كان ضمن مجال نفوذ الرومان، حيث تمكن القائد الروماني Septimus Flacus، من قيادة حملة عسكرية وصلت إلى حدود بلاد السودان، مستخدما في ذلك الجمل حوالي القرن 19 ق م (طرخان، إ.ع. 1967. القاهرة : 27)، الذي شكل بداية استخدامه نقلة نوعية في النقل والتنقل عبر القفر، مع ما يمتاز به من مؤهلات متلائمة مع الطبيعة الصحراوية، في تنشيط التجارة بين الشمال والجنوب؛ كما ساعد على هجرة البربر من الشمال إلى الجنوب خاصة زناتة (دونالد، و. 1962: 25).

رغم الصعوبات التي تطرحها الصحراء مناخيا وتضاريسيا وأمنياً، مع ما في البعد بين المراكز من تحمل للجوع والعطش، لم يتوقف منذ ذلك التاريخ ارتياد الصحراء وتعميرها، لاعتبارات روحية واقتصادية وحضارية، لذلك تاهت هذه الصعوبات في النتائج والأرباح العظيمة المترتبة على اجتياز الصحراء، وفي كل الاتجاهات؛ وعليه لا يمكن الحديث عن عزلة جغرافية بالنسبة للمناطق الصحراوية، كما تحدثت عن ذلك الأبحاث الغربية حسب عبد الله العروبي (العروبي، ع: 331)، والتي تعزوها إلى قلة الماء.

تؤكد الكتابات الجغرافية والرحلية، أن الماء موجود في الصحراء، والحصول عليه لم يكن بالأمر الشاق، وأن أبعد مسافة في الصحراء، بين موردين للماء، قد توجد على مسافة ثمانية أيام، حسب البكري (البكري، ع. ب ت: 163 - 164)، وهي إما أن تكون في شكل آبار لا يتعدى عمقها بضعة أمتار، أو عيونا جارية أو آبار يندفع منها الماء إلى سطح الأرض، أو تكون في شكل فقاقير - جمع فقارة-، خاصة بمنطقة توات، حيث اختلف

مؤرخو المنطقة، في فترة إنشائها والعناصر السكانية التي ابتدأت بحفرها، وفي ذلك يورد الباحث مقدم مبروك، إحدى عشرة فرضية لإنشائها، اعتماداً على المصادر المخطوطة بالمنطقة (مقدم، م. 2008: 33-47). إن ما يهمننا في السياق هو مساهمة الفقاقير في انسيابية الحركة القوافلية، باتجاه الجنوب والشرق، عبر واحات تمنظيط وكورارة وتيدكيلت.

يشكل مجال صحراء المغرب الأوسط، منطقة عبور رئيسة بين الأطراف المغاربية والمتوسطية والسودانية، وإن طرح مشكلة ندرة الماء بصحراء المغرب الأوسط كعامل معطل للارتداد؛ فإن المعطيات التاريخية تدحض هذه الفرضية، فضلاً عما تحلى به التجار من كفاءة، تجمع بين الجرأة والحذر والمغامرة والتروي والشجاعة؛ فكانت الصعوبات نقاط تقوية للتجاوز وبلوغ المقاصد.

## 2- المقاطع الصحراوية من مسالك ومفاوز المغرب الأوسط:

إن تموضع قرى وواحات المغرب الأوسط، على خط سير القوافل بين السواحل شمالاً، ودواخل الصحراء، إلى مشارف السودان الغربي جنوباً من جهة، وبين سجلماسة ودرعة غرباً، إلى فزان وأوجلة شرقاً من جهة ثانية، جعل منها فضاءً للعبور والتموين، للقوافل التجارية والحجية، ومجالاً للبناء والنشاط الاقتصادي والاجتماعي، بصحراء المغرب الأوسط.

الطرق التجارية العابرة لصحراء المغرب الأوسط، عرفت انتعاشاً ابتداء من القرن 2هـ/7م؛ بفضل حركية بعض التجمعات العمرانية، في اتجاه التعامل مع الجوار أكثر من ذي قبل، وساهم الامتداد الصنهاجي، في إنشاء واحات جديدة، أو تنشيط بعضها على يد الجماعات الاباضية، كغرداية وورجلان، كما اختطت زناتة، قصوراً لها مثل بودة وتمنظيط وتساييت ثم

تيكورارين، إلى أن استولى عليها عرب المعقل ووضعوا الإتاوات على أهلها (السلوي، ن. 1955: 159).

هذه الطرق شكلت أجراءً مهمة من مسارات عالمية، ربطت أسواق المغرب الأوسط والسودان الغربي بحوض المتوسط، خاصة مع حالة اللاستقرار التي عرفها الطريق الغربي الممتد من فاس إلى أودغشت، قبيل سيطرة السعديين على مراكش. وتتمثل هذه الأجزاء من الشمال إلى الجنوب، فيما يلي:

1- الطريق من تلمسان إلى توات؛ ثم إلى تنيكت وأكدز أو تغازا (الوزان، ل. 1983: 133 / كعت، م. ب ت: 18).

2- الطريق من تكرت وورجلان؛ إلى جاو ويتصل هذا الطريق بموانئ المغرب الأوسط.

وهناك مفاوز تربط شمال المغرب الأوسط بجنوب الصحراء:

1- الطريق من توزر وغدامس، إلى صحراء الأهجار ثم إلى فقاو، لكن هذا الطريق حسب الجغرافيين قليل الفائدة، لعدم وجود محطات تجارية أخرى، تمكن القوافل من التبادل، لذلك لم يكن مطروقا بشكل كبير من طرف التجار.

2- الطريق من غدامس إلى أودغشت وغانة وغيارو وكومبي صالح وتادمكت، عبر ورجلان وتوات .

حظي هذا المقطع بتوصيف شامل من لدن جغرافي القرن 10هـ/16م، ورحالة القرن 11هـ/17م، مثل العياشي، الذي أسهب في تعداد قراه، ووصف مسالكه وأسواقه، فأول قرية يذكرها العياشي، من صحراء المغرب الأوسط، قرية إيجلي وهي أول قرى وادي الساورة، ثم نزلت القافلة التي كان فيها بقرية مازر، ثم قرى بني عباس الثلاث وبشير، إلى أن

وصلت القافلة إلى منطقة يقال لها فم المدفع؛ حيث يلتقي هذا الطريق بطريق صابر التي تقطع الحمادة، ثم يعدد القرى التي هي على طريق الساورة باتجاه توات ومن هذه القرى، بني يخلف زاوية سيدي أحمد بن موسى إلى أن نزلت القافلة للمبيت على ماء تمغارن، وبالضفة اليسرى لواد الساورة توجد قرى أولاد رافع.

تمثل قرى أولاد رافع حسب العياشي، آخر حدود منطقة الساورة، ليبدأ إقليم توات، من قرى تسابيت، المكان الذي تتجمع القوافل الآتية من بلاد السودان ( تنبكت وأكلز )، والقادمة من المغرب، ثم اتجهت الطريق يساراً إلى بلاد أوكروت من بلاد تيكورارين، ثم إلى ورجلان مروراً بوادي إيمكيدين، ومن ورجلان إلى قاعدة وادي ريغ تكرت، ثم إلى سوف، التي تشرف على بلاد نفزاوة (العياشي، أبو سالم. 2006: 76 - 123).

يتضح من كلام العياشي عن هذا الطريق الذي يربط جنوب غرب المغرب الأوسط، بباقي اتجاهاته، إن أغلب أجزاء الطريق، هي بمحاذاة الأودية الصحراوية كواد الساورة، ومسعود وواد الحناء، وصولاً إلى واد ريغ عبر وادي مقيدن، كما أن هذا الطريق كان مطروقا بشكل كبير خلال القرن 11هـ/17م، خاصة من طرف قوافل الحجيج، وأغلب ما يميز هذا الطريق كثرة واحاته فضلا عن تردد الأعراب على أسواقه.

### 3- الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل:

لم تنشط التجارة عبر الصحراء رغم صعوباتها، إلا مع الأرباح المترتبة عن هذه المغامرة، أو لأداء فريضة الحج، بسبب أخبار الركبان عن المسالك، وما دوّنه الرحالة والجغرافيون عن الصحراء ومسالكها؛ فكانت كتاباتهم خرائط توجيهية، ولوحات ترسم عادات المجتمعات المتمركزة في

نقاط التوقف، حتى أصبحت اتجاهات الطرق ومراكزها والأبعاد بينها معلومة.

هذه المعطيات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، تمثل زاداً معرفياً، أو ما سمّيت "الدعم النفسي والمعلوماتي"، الذي يشجع مرتادي المسالك، على خوض المغامرة والتمتع بصعوباتها، إلى جانب هذا الدعم نجد دعم "لوجستي"، منه ما هو ذاتي في القافلة نفسها وتشكيلتها، ومنه ما تتقوى به في المراكز الصحراوية لدعم طاقتها على الحركة، في الفيافي والقفر؛ وعليه فالقوافل هي بحاجة إلى "مرافقة داعمة" وهي ما توفرة المراكز للقافلة، ومرافقة دائمة، وهي التي تمثل الحرف والمهن، التي تسير الركب، في حله وترحاله.

#### أ- المرافقة الداعمة (المراكز):

تمثل هذه المرافقة عادة، في المراكز التي تتغذى منها القوافل، عندما تحط رحالها بالمدن والقرى الصحراوية، لذلك نجد القوافل تتحمل المشاق وتتقدم ببطء في اتجاه المراكز، حيث تندعم بكل ما تحتاجه، لاستكمال مسيرها. فالقوافل القادمة من تلمسان وفاس، باتجاه تمبكتو؛ ستأخذ الطريق المار بتوات (ابن خلدون، ع ر، 2000. ج 6: 118) بحثاً عن الأمن، الذي افتقده الطريق الصحراوي الغربي الذي يمتد من ناحية السوس إلى ولاتة، لكثرة غارات الأعراب على سابلتها؛ فلذلك يعتبر الأمن العامل الأول المتحكم في تحديد مسار القافلة ومكان نزولها.

توات: تعتبر أعظم المراكز الصحراوية، على الطريق الصحراوي الأوسط؛ فهي ذات نخيل وأشجار وعيون، تبعد عن سجلماسة ثلاثة عشر يوماً، ولأول السودان عشرون يوماً، ولبلاذ الزاب عشرة أيام، تتكون من

مئتي قصر خلال القرن 11هـ/18م، أوسطهما تنطيط وبودة وتيمي (ابن عبد الكريم، م. مخطوط: الورقة، 1).

حفل إقليم توات بتوصيف، من لدن الرحالة والجغرافيين والمؤرخين، لموقعه الاستراتيجي، ولتمتعه بأنشطة حرفية ومهنية، داعمة للقوافل التجارية؛ فهو حسب ابن خلدون، بلد متبحر في العمران، ومنطقة تجمع القوافل المترددة من المغرب إلى السودان الغربي (ابن خلدون، ع. ر. ج: 6: 118)، وهو حسب الفشتالي "أوسع وطناً وأفسح مجالا وأقرب للسودان اتصالا وجوارا، وإلى قطر تيكورارين، وهو أعظم اشتهارا وأعرف نقيبا وأشد شوكة وأحسن جانبا وأعظم أقاليم المغرب وأكثرها أمما وأفسحها خطة، انتظم عمرانها واتصلت نخيله وتراصفت قصوره على مسافة ثلاثين مرحلة أو أكثر" (الفشتالي، ع. ب. ت: 73).

هذه المؤهلات جعلت من توات مجالا جغرافيا وطبيعيا ممتازا وفق معطيات الصحراء، وانعكست هذه الأهمية على الساكنة، لارتباط أنشطتهم بخدمة القوافل التجارية، فسكان توات أغلبهم أغنياء، لأنهم اعتادوا الذهاب كثيرا بسلعهم إلى السودان على حد تعبير الوزان، ومن مظاهر هذا الغنى، أن فرض عليهم السلطان سنة 815هـ، 500 مثقال عينا، كمؤنة للقاضي أبي يحيى بن محمد من طرف (ابن عبد الكريم، م. مخطوط: الورقة، 18).

كان مركز توات يقدم دعما كبيرا للقوافل؛ فأسواقها عامرة بالمنتجات الفلاحية، من تمر وعنب وشعير والقمح، وبعض المنتجات الحرفية، كالبرانس والحياك (باي بالعالم، 2005، ج: 2: 64)، والقرب والنعال الجلدية وغيرها، وأدوات مصنوعة من سعف وجدوع النخل، زيادة على المنتجات الرعوية مثل لحم الجمال، والشحم المالح، الذي يأتي به التجار

من فاس وتلمسان، ويلقى رواجاً كبيراً بأسواق المنطقة (الوزان، ل.1988. ج2: 134).

فضلا عن التجارة الخارجية لإقليم توات مع الجوار، فقد عرفت قرى الإقليم، تجارة بينية داخلية، تنشطها القبائل التواتية، مثل قبيلة أدوغ برقان، التي كانت تأتي بالرقيق وعروض التجارة من بلاد التكرور، وتمر على القرى التواتية؛ فتبيع الرقيق والعروض، وتمضي إلى الدغامشة والزروي وتيكورارين وتشتري الكسوة وترجع بلدها (ابن عبد الكريم، م، مخطوط: الورقة 49).

وقد كان التواتيون وغيرهم من ساكنة المراكز الصحراوية، يتباهون بإكرام الضيف، ومن جملتهم ركب القوافل، حيث قال صاحب كتاب صورة الأرض: (وأكثر بربر المغرب الذين من سجلماسة إلى السوس... إلى نواحي تيهرت وإلى... تنس والمسيلة ويسكرة وطبنة... يضيفون المارة ويطعمون الطعام) (ابن حوقل. أ.ق. 1872: 92)، لذلك قلت، إن لم اقل انعدمت بها الفنادق، فأهل المنطقة يؤون الغرباء في منازلهم بدون أجر ولا يمسونهم بسوء (الوزان، ل.1988، ج2: 134)، ويذكر صاحب كتاب "نسيم النفحات"، أن ظاهرة إطعام وإيواء الغرباء، أصيلة في المجتمع التواتي، وعاداتهم في ذلك إذا توفرت الزاوية في القصر؛ فإن المسافر يقصدها، فيجد فيها كل ما يحتاج إليه حتى علف الدابة، وإن لم تكن به زاوية؛ فإن أهل القصر لهم عادة أن لكل واحد منهم نوبة، ولا يتخلف عن النظام عندهم ولو طال مقام الضيف بالزاوية؛ فإن ضيافته بمن معه ستبقى مستمرة إلى حين ترحاله (الطاهري، أ. 2000: 60). وتمثل موارد الزاوية، إما من الأحباس أو التجارة، حيث كان لزاوية علي بن أحنيني تسعمائة جمل تتجر مع بلاد السودان (ابن عبد الكريم، م، مخطوط: الورقة 49).

اشتهرت بعض المراكز، مثل توات بحرفة الصّرافة، نظرا لارتباطها بأسواق السودان وقربها منها، وشهدت أسواق الذهب بتوات، خلال النصف الثاني من القرن 11هـ/17م، هبوطا مقارنة بالأسواق المجاورة، حيث يذكر العياشي، أن الحجاج الذين كانوا بمعيتة، أخرجوا الصّرف إلى توات، لأنه أرخص من تافيلالت، حيث بيع المثلقال ب أربع وعشرون موزونة (العياشي، أ س، 2006. ج 1: 80)، كما أن صك النقود عرفت به بعض المراكز، مثل ورجلان، باستعمال الذهب القادم إليها من السودان " ورجلان مدينة فيها قبائل مشرفون وتجار أغنياء، يتجولون في بلاد السودان إلى غانة؛ فيخرجون منها التبر ويضربون في بلادهم السكة، باسمهم" (الإدريسي، ش. 1863: 73)، ومنه نؤكد ماجاء به الباروني، من أن ورجلان تحتل المركز الريادي في قيادة قوافل التجارة إلى بلاد السودان (الباروني، س. ب / ت، 8 - 9).

المراكز الأخرى: وتتمثل في القصور المتواجدة شمال توات، على طول وادي الساورة وكير، منها قرى بني قومي، وواكدة، بها أسواق داعمة للقوافل، حيث يبيعونهم الخيل التي يسوقوها أهلها من فاس، لبيعها التجار إلى ملوك السودان الغربي، وكبار الموظفين بأثمان مرتفعة (الوزان، ل. 1988. ج 2: 130/ القلقشندي، 1914. ج 5: 287)، فضلا عن قرى وادي الساورة، التي ذكرها العياشي منها الغابة، وهي مجموعة من القرى المترابطة فيما بينها بواحات النخيل، حتى تترأى للناظر من بعيد كأنها سواد، لذلك نعتها العياشي بالغابة، والتي كانت تقصدها العرب والقوافل للميرة (العياشي، أ س. 2006. ج 1: 78).

كما عرفت حواف هذه المراكز، حرفة الرعي، التي أمتنها الأعراب، وهم يُغـدُون بمنتجاتها الأسواق بالسمن واللحم والوبر والصوف، اللازم لصناعة الخيم والملابس، مثل ورجلان، التي كانت كثيرة

الصناع وسكانها أغنياء (الوزان، ل. ج: 2: 136)، لذلك نشطت هذه الحرف المرتبطة بالمواد الأولية المحلية من جهة، والمتنوع الموجه لتجار القوافل من جهة ثانية. وكثيرا ما نعت الوزان أسواق المراكز الغربية من صحراء المغرب الأوسط، بقلة المنتجات الحيوانية من لحوم وسمن.

نجد العياشي يشيد بالمراكز الصحراوية الوسطى والغربية؛ مثل وركلة وبسكرة، في توفير هذه المنتجات وبأثمان رخيصة (العياشي، ا. س. ج: 1: 114- ج: 2، 540)، وأسواق تكرت وبسكرة توفر لهم تمر من أطيب الثمار، حتى أن كل عشر تمرات من تمر بسكرة، بيعت في أسواق تنبكت بخمس ودعات (كعت، محمود. ب/ ت: 219)، لأن بلاد السودان خالية من التمر، إلا ما يأتيها من بلاد الزاب، عن طريق تجار وركلان (البكري، أ. ع. ب ت: 52)، ويجد تمر بسكرة، كذلك رواجاً بأسواق تونس وبجاية (ابو الفداء، ع. 1830: 139)، كما توفر ورجلان للقوافل التجارية، الذاهبة للسودان الحنطة، إذ يقول الحميري عندما يتحدث عن تنبكت "وأكثر ما يزرعون الذرة، وربما جلبت الحنطة إليهم من بلاد وركلان وغيرها" (الحميري، م. 1984: 514).

لقد كانت الحرف والمهن المنتشرة في المراكز الصحراوية داعمة للقوافل، رغم محدودية تنوعها، بحكم الموارد المتوفرة، فكانت حرفة الزراعة والرعي أهمها، بما توفره للقوافل من احتياجات ضرورية، مع عروض مقبولة للمنتجات الحرفية، تساهم في تنوع البضائع المسوقة بالسودان الغربي، بينما الجوانب الخدمائية بهذه المراكز، كالفندقة والمطاعم، فلا تذكر لنا المصادر - على الأقل المتوفرة لدينا- عنها شيئا، وهذا لاعتبارات سبق طرحها.

### ب- المرافقة الدائمة (المسايرة):

إلى جانب المرافقة الداعمة، نجد حرف ومهن أخرى، لصيقة بالقوافل في حلها وترحالها، ولا تكاد تخلو قافلة منها؛ وبالتالي فهي دائماً

طالما القافلة تسير، حيث تحافظ على أمن وخط سير القافلة وتقدم لها الخدمات.

كانت القافلة الواحدة، عبارة عن مدينة متحركة، فيها المؤذن والإمام والقاضي والشيخ والرئيس، كل مجموعة من هؤلاء الرؤساء، يتكون مجلس القافلة ومن بينهم ينتخب شيخ القافلة ... كما كان بالقافلة الحراس والفنانون والمغنون والمصرفيون والتجار والسياح والحجاج والمتسكعون والمتجولون والكثير من أخلاط الناس والمهن، وتدل المعطيات أن القافلة لم تكن عربة تحمل البضائع فحسب، بل تمثل في ذاتها شبكة اجتماعية متكاملة، ووعاء ناقل للحضارة، متفاعلاً داخلياً وخارجياً، ويمكن أن أصف القافلة، بأنها شركة ذات مهمة محددة ووجهة معروفة، يضبطها قانون يسهر على تنفيذه مجلس القافلة، برئاسة "شيخ القافلة".

**1- رئيس الركب (شيخ القافلة):** تتمثل مهمة رئيس الركب، في التفاوض مع سلطات المناطق التي تعبرها القافلة، حيث يذكر الوزان أن شيخ القافلة، التي كان بها، فإوض الطوارق ودفع لهم إتاوة المرور وهي لا تتجاوز قطعة قماش تساوي دينارا على كل حمل حمل(الوزان، ل. 1988 ج 1: 60)، كما أنه يؤمن القافلة من التيهان وسلوك أيسر المسالك، وفي ذلك يقول العياشي: "كان رحيلنا من ... تيكورارين ... وأخذنا على طريق واد إيمكيدين، ومعنا رجل من الخنافس إكتره أمير الركب، يدهم على الطريق " (العياشي، أس. 2006، ج 1: 107)، كما قد يترك أمير الركب واحدا من أصحابه، ليدل من تأخر ليلتحق بالركب.

**2- الوكلاء:** تشير كتب الرحالة والجغرافيين، أن بالقافلة وكلاء أو دالين، وهم وكلاء للبايعين يتعهدون السلع والبضائع من أصحابها، لبيعها لهم في أسواق أخرى، مقابل أجرة، كما كان يفعل سكان واكدة وتبلالت،

بإرسال بضاعتهم التي أغلبها من تمر، فضلا عن الخيول، مع التجار الذاهبين إلى أسواق السودان الغربي، (الوزان، ل.ج:2: 132).

3- المُخبرون: إلى جانب الوكلاء، يشكل الدليل أو المرشد أو المخبر، بوصلة القافلة، إذ بدونه تنبيه القافلة في الفيافي، فقد حصل مع ركب العياشي، أن أحداً من أفراد القافلة، تاه بنواحي الأغواط، فوجده الدليل راجعا من حيث قدمت القافلة، وهو يظن أنه متوجها نحو المغرب، وقد تتسبب الأمطار في ضياع الأثر وعدم وضوح الرؤية للمخبر، فينحرف عن الطريق إلى مسالك وعرة وأودية، حينها تتوقف القافلة، ويذهب أمير الركب والمخبر لالتماس الطريق. (العياشي، أ س، ج:2: 547 - 548).

4- الحامية: كانت بعض القبائل العربية، تقوم بمرافقة القوافل، بغرض حمايتها من الإغارة، وتوجيهها، ومن ذلك ما قام به أمير الركب، الذي كان فيه ابن مليح (1040-1042هـ / 1630-1633م) بأن بعث وفداً إلى جراوة، لمرافقتهم لقطع البيداء "فالتقينا بهم بخنك وادي الساوره... وسرنا مع وفد الجراوة لقطع البيداء... حتى قدمنا تلبالت" (ابن مليح، أ.ع. 1868: 134).

5- العمال والمنجميون: كما تضمنت القافلة عمالا، فمن بين المهام التي كانوا يقومون بها، تسوية الأبار المعرضة للردم، بسبب الزوابع الرملية، حيث يقوم العمال بترميمها من الداخل، بواسطة عظام الإبل الهالكة، ثم يغطونها بجلودها، ومن ضمن هؤلاء العمال، من يرحل مع القوافل بحثا عن العمل والثراء خارج وطنه، حيث يذكر الدالي في كتابه التاريخ السياسي، أن بعض ممن الذين كان يعمل في استخراج الملح بـ "تغازا" هم من خارج البلدة، حيث يأتون مع القوافل كمنجمين (الدالي، م 1999: 297).

**6- التراجمة والجمالون:** ولكون هذه القوافل تجتاز إطارها الحضاري إلى مناطق وحضارة ومجتمعات أخرى، تتكلم لغة غير لغة سكان صحراء المغرب الأوسط، لذلك فهي بحاجة إلى أن يكون ضمن طاقمها مترجم، يعرف لغة الأقوام الذين سيتعاملون معهم خاصة بأرض السودان، حيث يؤكد الوزان أن القافلة التي كان فيها وصلت إلى أرض السودان، وقام أميرها بإكرامهم " رغم أنه لا يفهم لغتنا ولا نفهم لغته، وإنما كانت محادثتنا معه بواسطة ترجمان " (الوزان، ل. ج. 1: 61)، كما تحتوي القافلة على الجمالين، الذين يقتادون الجمال - وهم غير التجار-، ذلك ما يفهم من رواية الوزان، عندما تمت دعوة الركب الذي كان فيه من طرف أحد أمراء السودان؛ فإن التجار رفضوا الدعوة، بحجة بعد مقر إقامة الأمير عن الجادة، لكن حرص الأمير على استضافتهم، اقترح عليهم ان يتابع الجمالون السفر مع الدواب، ويصحبه التجار (الوزان، ل. ج. 1: 64) .

إن التجارة عبر الصحراء، لم تكن تخضع للفوضى وحالة اللانظام، بل المتمعن في حيثياتها يكتشف مدى حرص التجار على تقدير العواقب، وعلى عمق التنظيم، بما يكفل الحفاظ على النفس البشرية والبضاعة التجارية.

وفي الأخير نخلص إلى الاستنتاجات التالية:

- 1- أن صحراء المغرب الأوسط، رغم قساوة طبيعتها وامتداداتها الجغرافية، شكلت مجالا للتواصل الحضاري بين السواحل والدواخل.
- 2- المقاطع الصحراوية ومراكزها، مثلث الرثة التي تتنفس منها القافلة التجارية والحجبية، كما أن أغلب المقاطع اتخذت مسارها بجوار نقاط الماء.

- 3- الحرف والمهن المتمركزة في المدن والقرى، ساهمت في ثراء ساكنتها، ودعمت وأثرت بضاعة القوافل، سيما المتوجهة إلى السودان الغربي.
- 4- القافلة كانت مدينة متحركة، تحمل كل ما تحتاجه خلال سفرها، الذي يمتد لأشهر، ويسهر ركبائها، كل حسب وظيفية على إنجاح مهمتها، والعودة بما قل حملة وغلا ثمنه.

### قائمة المصادر والمراجع

#### المصادر

- 1- ابن عبد الكريم، محمد، كتاب درة أقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط (بجوزتنا).
- 2- الإدريسي، ش. (1863). نزهة المشتاق في إختراق الآفاق. ليدن: مطابع بريل.
- 3- الباروني، سليمان. (ب ت). الأزهار الرياضية في ملوك الإباضية. بدون مكان الطبع
- 4- البكري، أبو عبيد. (بدون تاريخ الطبع). المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب. طبعة حجرية.
- 5- الحميري، محمد بن عبد المنعم. (1984). الروض المعطار في خبر الأقطار. حققه: إحسان عباس. مكتبة لبنان.
- 6- ابن حوقل. أبو القاسم. (1872). كتاب المسالك والممالك. ليدن: مطبعة بريل.
- 7- ابن خلدون، عبد الرحمن. (2000). تاريخ ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة. مراجعة: سهيل زكار. بيروت: دار الفكر.
- 8- الطاهري، أحمد. (2000). نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء والثقات. حققه وعلق عليه: عبد الله الطاهري، بدون مكان الطبع.
- 9- كعت، محمود. (ب ت)، تاريخ الفتاش، بدون مكان الطبع.
- 10- ابن مليح، أبو عبد الله محمد السراج. (1868). أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الأمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب. حققه وعلق عليه: محمد الفاسي. فاس.

- 11- السلاوي، الناصري. (1955). الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى. الدار البيضاء: دار الكتاب.
- 12- العياشي، أبو سالم. (2006). الرحلة العياشية 1661-1663م. حققها وقدم لها: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي. الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع.
- 13- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل. (1830). تقويم البلدان. اعتنى بتصحيحه وطبعه: البارون ماك كوكين ديسلان. باريس: طبع الطباعة السلطانية.
- 14- الفشتالي، عبد العزيز. (ب ت). مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا. دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم. المغرب: مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية.
- 15- الوزان، الحسن. (1983). وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. بيروت: دار الغرب الإسلامي

### المراجع بالعربية:

- 16- باي بالعالم، محمد. (2005). الرحلة العلية إلى منطقة توات. الجزائر: مطبعة دار هومة
- 17- الدالي، الهادي المبروك. (1999). التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن 15 إلى بداية القرن 18. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- 18- زنير، محمد. (1984). تجارة القوافل في المغرب. المنظمة العربية للتربية والثقافة.
- 19- طرخان، إ.ع. (1967). البرتغاليون في غرب إفريقيا. القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة.
- 20- مقدم، م. (2008). تغير البنيات الزراعية في المجتمع التواتي. الجزائر: دار هومة.
- 21- دونالد، و. (1962). تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء. نيويورك: بدون دار النشر.